

# شرح حديث بِيَنَا أَمْشَى إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِّنَ السَّمَاءِ

قال المصنف رحمة الله: قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: { بِيَنَا أَمْشَى إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِّنَ السَّمَاءِ، فَرَفِعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَى كَرْسِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرَجَعْتُ مِنْهُ، فَرَجَعَتْ فَقْلَتْ: زَمْلُونِي زَمْلُونِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ } إِلَى قَوْلِهِ: { وَالرُّجْرَ فَاهْجُرْ } فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَوَاتَرْ }. تَابَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ وَأَبُو صَالِحٍ وَتَابَعَهُ هَلَالُ بْنُ رَدَادَ عَنِ الرَّهْرِي وَقَالَ يُونَسٌ وَمَعْمَرٌ بِوَادِرَهُ.. يَقُولُ نَقْلُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَحْدُثُهُمْ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، ذَكَرَ أَنَّهُ تَوَقَّفَ الْوَحْيُ مَدَةً سَنَةً أَوْ سَتِينَ أَوْ نَحْوَهَا، فَأَهَمَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحْزَنَ لِهَذَا التَّوْقِفِ، فَكَانَ يَذْهَبُ هَائِمًا، وَمِنْ شَدَّةِ شَوْقِهِ إِلَى نَزْوَلِ الْوَحْيِ يَكَادُ أَنْ يَتَرَدَّى مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، حَتَّى إِذَا هُمْ بِذَلِكَ بَدَأُوا لِهِ الْمَلْكُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا جَبَرِيلُ فِيهِدُكَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ قَطَّهْرَ وَالرُّجْرَ فَاهْجُرَ وَلَرَبِّكَ فَاصْبِرْ } إِلَى قَوْلِهِ: أَوْلُ سُورَةِ الْمَذْمُرِ، وَقَالَ: أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ أَوْلَ سُورَةَ الْمَذْمُرِ: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِيرَ وَثَيَابَكَ قَطَّهْرَ وَالرُّجْرَ فَاهْجُرَ وَلَآتَمْنُنْ تَسْتَكِنْرُ } هَذِهِ أَوْلُ مَا نَزَّلَ عَلَيْهِ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ وَبَعْدَ سُورَةِ الْمَذْمُرِ قَرَأَهُ. لَمَّا أَنْزَلْتُ عَلَيْهِ أَمْتَنَّلَ مَا أَمْرَبَهُ، { قُمْ فَأَنْذِرْ } أَيِّ: اتَّبَعَهُ مِنْ مَكَانِكَ وَقَمْ وَأَنْذَرَهُمْ بَعْنَى حَذْرَهُمْ عَنِ الشَّرِكِ وَخَوْفِهِمْ عَنِ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْثِكُ بِشَيْئًا نَذِيرًا. { قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِيرَ } أَيِّ: عَظَمَ رَبِّكَ وَكَبِيرَهُ كَبِيرَهُ بِعِبَادَتِهِ، وَكَبِيرَهُ بِتَوْحِيدِهِ، وَاعْتَدَ أَنَّهُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا أَكْبِرُ مِنْهُ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ، وَعَظَمَهُ بِصَرْفِ جَمِيعِ عِبَادَتِكَ لَهُ وَحْدَهُ. { وَثَيَابَكَ قَطَّهْرَ } قَيْلُ إِنَّ الْمَرَادُ الْكَسْوَةُ؛ أَيْ طَهْرُهَا عَنِ النِّجَاسَاتِ، وَقَيْلُ إِنَّ الْمَرَادُ الْأَعْمَالُ؛ طَهْرُ أَعْمَالِكَ عَنِ الشَّرِكِ، الْأَعْمَالُ الَّتِي تَعْمَلُهَا وَتَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ إِذَا كَانَتْ خَالِصَةً فَإِنَّهَا طَاهِرَةٌ، فَإِنَّ الشَّرِكَ وَالْبَدْعَ وَنَحْوَهَا تَنْجِسُهَا وَتَفْسِدُهَا وَتَقْذِيرُهَا، فَطَهَرَ أَعْمَالَكَ عَنِ الشَّرِكِ. { وَثَيَابَكَ قَطَّهْرَ وَالرُّجْرَ فَاهْجُرَ } قَرَأَهَا بَعْضُهُمْ: (الرُّجْرُ فَاهْجُرُ ) الرُّجْرُ وَالرَّجْسُ هُوَ الْأَصْنَامُ، وَهُجْرُهَا تَرْكُهَا وَأَهْلَهَا، وَالْبِرَاءَةُ مِنْهَا، سَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى رَجَّاً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { وَبِذِهْبَ عَنْكُمْ رَجَّرَ السَّيْطَانَ } يَعْنِي دُعَوَتُهُ إِلَى الشَّرِكِ، وَسَمَاهَا رَجِسًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: { قَاجْتَبِيُّوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَبِيُّوا قَوْلَ الرَّوْرِ } فَأَمْرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَأَنْ يَهْجُرَهَا؛ يَبْغِضُهَا وَيَمْقُتُهَا وَيَمْقُتُ أَهْلَهَا. { وَالرُّجْرَ فَاهْجُرَ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكِنْرُ } أَيِّ: لَا تَمْلِي مِنَ الْأَسْكَنَارِ مِنَ الْعِبَادَةِ؛ بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَكْثُرَ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ الَّتِي أُمِرْتَ بِهَا وَأَرْسَلْتَ إِلَيْهَا، تَسْتَكِنْ مِنْهَا مِمَّا أَسْتَطَعْتُ. { وَلَرَبِّكَ فَاصْبِرْ } أَيِّ: أَصْبَرْ عَلَى مَا يَصْبِيكَ مِنَ الْأَذَى؛ كَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى أَنَّكَ سُوفَ تُكَذَّبُ، وَسُوفَ تُؤَذَّى، وَسُوفَ يَنَالُكَ كَلَامُ سَيِّئٍ وَسُخْرِيَّةً وَتَكْذِيبٍ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَحَمِلَ كَمَا قَالَ فِي آيَةِ أُخْرَى: { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } امْتَنَّلَ ذَلِكَ كَلَمَ وَصَبَرَ حَتَّى نَصَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَظْهَرَهُ بَعْدَ نَزْوَلِ هَذِهِ الْآيَاتِ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَوَاتَرَ وَتَابَعَ وَاسْتَمَرَ، وَعُرِفَ أَنَّهُ مَرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ مَا يَنْزَلُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. كُمِّلَتِ السُّورَتَانِ سُورَةُ الْعَلْقِ كَمْلَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْعَمُ } إِلَى آخِرِهِ، وَكَانَ لَمَّا أَنَّهُ جَهَرَ بِالْعِدَاوَةِ عَادَهُ وَأَظْهَرَهُ الْعِدَاوَةُ لِهِ رَءُوبِنِ الْمِشْرِكِينَ، وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ أَبُو جَهَلَ بْنَ هَنْتَامَ الَّذِي اشْتَهَرَ بِالْأَذَى، فَقَيْلُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِشَارَةً إِلَيْهِ، { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْعَمُ أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى } وَأَنَّهُ كَانَ يَمْنَعُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنْ يَصْلِي فِي الْحَرَمِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { كَلَّا لَا تَطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } أَيِّ لَا تَطِعَهُ فِي نَهِيكَ، وَاسْجُدْ يَعْنِي صَلَّ، وَاقْتَرِبْ افْعُلِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِي قَرْبَةُ، وَالسُّجُودُ الَّذِي هُو طَاعَةُ. وَكَذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَذْمُرِ فِيهَا إِشَارَةُ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ الَّذِي وَصَفَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ: { دَرْبِنِي وَمِنْ حَلْقَتْ وَحِيدَانَ } وَهُوَ الْوَلِيدُ خَلْقُهُ اللَّهُ وَأَخْرَجَهُ وَحِيدَانَ، { وَمَهَدْتُ لَهُ تَمَهِيدَانَ } وَأَمْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: { وَتَبَيَّنَ شُهُودَانَ } يَعْنِي وَهَبَ لَهُ أَوْلَادًا غَالِبًا يَكُونُونَ شُهُودًا عَنْهُ، { تُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ } هَذِهِ فِي قَصَّةِ الْوَلِيدِ إِلَى قَوْلِهِ: { إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ } إِلَى قَوْلِهِ: { سَأَصْلِيَ سَقَرَ } فَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ جَمِلَةِ مَا تَنَابَعَ بِهِ الْوَحْيِ.